سماح إدريس

رسالة إلى د. جورج حبش

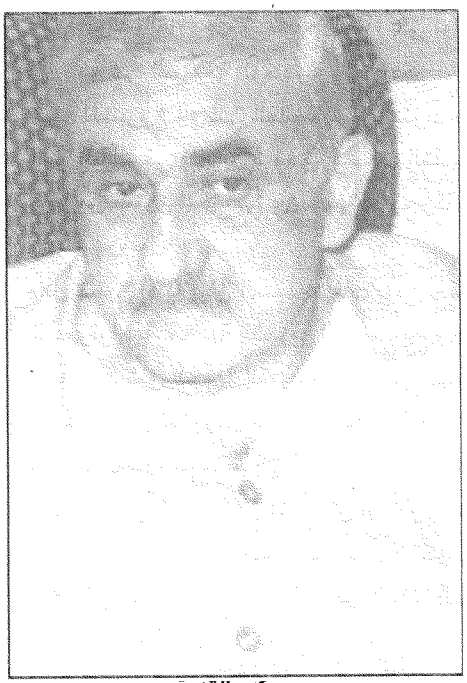

حكيم الثورة

عزيزي د. جورج حبش،

الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين،

تحية وشوقاً وبعد،

لا تدري، يا عزيزي الحكيم، كم يصعب عليّ أن أكتب إليك هذه الرسالة المفتوحة. فلقد شعرتُ أنني أقول ما تَعْرفه جيداً، وما علَّمتَنا إيّاه جيداً، ومازلتَ تؤمن به وتعلِّمه الأجيالَ حتى اليوم. ولكنْ ماذا تراني أقول، وقد تبيَّن لي أنّ خطوتكم الأخيرة، بالموافقة على ذهاب أعضاء من المكتب السياسيّ للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للحوار مع السيد ياسر عرفات وجماعته في القاهرة، تتناقض مع ما عرفتموه، وعلَّمتموه، وآمنتم (وما زلتم تؤمنون) به؟

أتمنى أن يتّسع صدرُك ـ وأنتَ الدمث الكبير القلب، المتفجِّر حناناً وعاطفةً وتواضعاً ـ لأسئلتي، التي هي أسئلةُ الكثيرين... بل هي أسئلةٌ تراود ذهنَكَ أنتَ أيضاً، لأنني إخال أنّك لستَ مقتنعاً جداً بخطوتكم الأخيرة، ولهذا امتنعتَ عن الذهاب إلى القاهرة للقاء السيد عرفات وقيادةِ حركة «فتح».

أ ـ فهل تعتقد أنّ بإمكان الجبهة الشعبية، ومعها الجبهة الديموقراطية، الضغطَ على عرفات للحدّ من تنازلاته في مفاوضات الحل النهائيّ؟

قد تنجحون حقاً في «إجباره» على أن يعطيكم بعضَ التمثيل «الرمزيّ» في المجلس الوطنيّ العتيد، أو في الهيئات القيادية الجديدة، بل ربّما في قيادةٍ مشتركةٍ «تُشْرف وتَفْحص وتقود العمليةَ التفاوضية» في المفاوضات الشاملة ـ وهي القيادة التي يطمح السيد نايف حواتمة إلى أن تُشكَّل قريباً. ولكنْ ما هي عناصرُ قوتكم الآن، ولا دعمَ دولياً أوْ عربياً أو مالياً لكم؟ وهل سيؤْثِرُ السيد عرفات التحالفَ معكما على الاتفاقات التي وقّعها مع العدوّ الإسرائيليّ، ونال بفضلها بركاتِ الراعي الأميركيّ والدعمَ الأوروبيّ والمساعداتِ الدوليةَ ورضَى أنظمةٍ عربيةٍ كثيرة؟

وهل تعتقد، أيها الحكيم، أنّ الحوار سيكون في حدّ ذاته قادراً على دفع عرفات وسلطته إلى التغيير؟ أَمْ تُرجِّح أن تأتي «وحدتُكم» الجديدةُ معه تعزيزاً لعملية السلام وفق الشروط المفروضة علينا جميعاً، والتي لا شروطَ إلاّها؟ وما رأيكم، في هذا الصدد، بما قاله لوكالةِ الأنباءِ الفرنسيةِ مسؤولٌ إسرائيليٌّ طَلَبَ عدمَ الكشف عن اسمه حين أكّد تعليقاً على تقارب عرفات وحواتمة: «أنّ كلّ ما يعزِّز سلطةَ عرفات، شريكِنا في المفاوضات، لا يمكن إلاّ أن يكون إيجابياً بالنسبة إلى عملية السلام؟» (**السفير** ٢٥ آب)؟! بل ما رأيكم بقول باراك إنّه «يجد إيجابيةً في وجود قوى فلسطينية أكثر أصبحتْ تتبنّى عملية السلام» (**الحياة** ٢٦ آب)؟

ب ـ هل يمكن الفصلُ بين «المرحلة الانتقالية» والمرحلة النهائية في مفاوضات الحلّ الشامل؟ وبكلامٍ آخر، هل يمكن القفزُ على اتفاقيات أوسلو وواي ريفر، وكأنّها لم تكن؟ أَمْ أنّ الوضع النهائيّ ـ على نحوٍ ما يؤكّد السيّد نبيل شعث ـ هو من مسلّمات أوسلو وواي ريفر (**الحياة** ٢٦ آب) وليس مستنداً إلى قرارات «الشرعية الدولية» التي يحلو للسيد حواتمة (ولكم أيضاً) التغنّي بها رغمَ مظالمها؟ وبمعنى آخر، هل يمكن نسيانُ إلغاء الميثاق الوطنيّ الفلسطينيّ، وقبْلَهُ نسيانُ تعهُّدِ السلطة الفلسطينية (في واي ريفر) بمكافحة «الإرهاب» الفلسطينيّ بالاتفاق مع المخابرات المركزية الأميركية والموساد، وموافقةِ السلطة الفلسطينية على التخلّي عن اللاجئين وعن فلسطينيي ١٩٤٨ وعن المناطق «المتنازَعِ عليها» حتى داخل الضفة الغربية؟

ج ـ هل يمكن بناءُ وحدةٍ وطنيةٍ فلسطينية بعد التنكّر لاستراتيجية العمل الفلسطينيّ المقاوِم ممثّلاً بالميثاق الوطنيّ ـ على عيوبه (التي يجب تصحيحُها بناءً على توافقٍ فلسطينيٍّ شعبيٍّ، لا استجابةً لرغبة إسرائيل وكلينتون)؟
ترى ما هي الصيغة الوحدوية التي يمكن أن تتفقوا عليها مع قيادة عرفات بعد أن ألغتِ السلطةُ الفلسطينيةُ هويةَ المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ باعترافها بمشروعية الصهيونية على أرض فلسطين، ودون أن تعترف إسرائيلُ ـ في المقابل ـ بحقّ الشعب الفلسطينيّ في العودة وتقرير المصير وبناء دولته المستقلة؟ ولماذا لم يتضمّن البيانُ الختاميُّ بين جبهتكم وحركة «فتح» أيَّ إشارة إلى أوسلو أو واي ريفر أو الميثاق، كما كنتم قد وَعَدْتم من قبلُ؟
وهل تثقون أصلاً بأنّ السيد عرفات يؤْمِن حقاً بالوحدة الوطنية الفلسطينية؟ مَنْ شقّ (أو ساهم في شقّ) الجبهة الديموقراطية، وجبهة التحرير الفلسطينية، وجبهة التحرير العربية، وجبهة النضال الشعبيّ الفلسطينيّ... بل مَنْ ساهم في شقّ الجبهة الشعبية نفسها في نهاية الستينيّات بالدعم الماليّ والعسكريّ؟ ومع ذلك تَدْعون إلى الوحدة مع عرفات، وتعتبرون التناقضَ معه «ثانوياً»! وكيف تتوحّدون مع مَنْ يعتقل المناضلين، ويعذّبهم في السجون، ويسرِّب المعلوماتِ عنهم إلى الموساد ليغتالهم، بمن فيهم مناضلو حركة «فتح» نفسها؟
الوحدة أمرٌ مُهِمّ، ولكنْ هل يمكن أن تُدْرَجَ ضِمْنَ ما أسماه د. حسين أبو النمل بـ «الخصوصية النفسية الفلسطينية» التي شرْعها «حتى حين لا تكون مبنيةً على أيّ أسسٍ وحتى حين يكون مبالَغاً فيها» (**المستقبل العربي**، العدد ٨، سنة ١٩٩٩، ص ١٠٦)؟ ألم ينخرط السيد عرفات في مفاوضات أوسلو نفسِها من وراء ظهر الشعب الفلسطينيّ، بل شَرَعَ في مفاوضاتٍ موازية من وراء ظهر المفاوضين الفلسطينيين الذين عيَّنهم بنفسه (الدكتور حيدر عبد الشافي، ود. حنان عشراوي، الخ...؟). أبمثلِ هذه التصرفاتِ يتصرّف مَنْ يؤمن بالوحدة الوطنية إيماناً حقيقياً؟

د ـ هل أنتم مقتنعون حقاً بضرورة استعادة منظمة التحرير الفلسطينية؟
كلنا نشعر أنّ المنظمة هي وطن الشعب الفلسطينيّ من الناحية المعنوية، ولكنْ ألسنا ترانا نبالغ في رومانسيّتنا حين نتناسى أنها كانت مؤسسةً ديكتاتورية، ولم تكن تعبيراً عن الشعب الفلسطينيّ بل عن محاصصةٍ فصائليّةٍ فحسب؟ بل إنّ هذه المحاصصة نفسَها لم تكن مبنيةً على أساسٍ ينسجم وعددَ الأسرى والمعتقلين والشهداء والعمليات العسكرية لكلّ فصيل. والمنظّمة ـ اليومَ وأكثر من أيّ وقتٍ مضى ـ لا تمثّل الشعبَ الفلسطينيّ، لا من حيث الواقع التنظيميّ ولا من حيث الطموحات الشعبية الفلسطينية؛ وعدمُ وجودِ بديلٍ عنها لا يعني بالضرورة أنّ علينا الاستكانةَ إليها، أليس كذلك؟ هل فقدتُم أيَّ أملٍ بإيجاد بديلٍ وحدويٍّ، ديموقراطيٍّ، مستقلٍّ، يستند إلى تراث المنظمة النضاليّ ومكتسباتها الوطنية، ويبتعد عن ديكتاتوريتها و«كوتيّتها» (محاصصيّتها) وانعدامِ تمثيلها لكافة شرائح المجتمع الفلسطينيّ؟ وهل بَلَغَكم ما قاله د. نبيل شعث (وزير «التخطيط») من أنّ انتخابَ مجلسٍ وطنيٍّ جديد ـ وهو ما تطالبون به مقدّمةً لتفعيلِ وتطويرِ مؤسساتِ منظمة التحرير ـ أمرٌ غيرُ واقعيّ (**الحياة** ٢٦ آب)؟

هـ ـ ما هو أثر العامل الماديّ /المعيشيّ في قرار الجبهة الشعبية إجراءَ الحوار مع السيد عرفات؟
يقول الدكتور حسين أبو النمل: «توجد الآن مشكلة جدية عند الشعب الفلسطينيّ اسمُها مشكلة الطعام. وإلاّ فما

السبب في أنّ خيرة الطبقة العاملة في غزّة مثلاً تذهب إلى العمل في إسرائيل؟...».

ويتابع هذا المسؤول في «الشعبية» قولَه: «[لا] يكفي طرحُ المبادئ ورفعُ الشعارات [كي] تصبح كلُّ المسائل محلولةً». بل هو يمتدح «المزاجَ» السياسيَّ الفلسطينيّ: «فهذا المزاج» ـ كما يقول ـ هو «مع حركةِ حماس صباحاً ومع عرفات (أي الخبز) مساءً»، معتبراً هذا المزاجَ «قفزةً في القدرة على تأمين قواسم مشتركة» (**المستقبل العربي**، العدد ٨، ١٩٩٩ ص ١٢٩)... علماً أنّ أبو النمل كان قد شَجَبَ في سياق حديثه نفسه «النفاقَ السياسيَّ» وشدّد على ضرورة أن نكون إمّا تسوويين وإمّا قطعيين (ص ١٢٧ من المصدر نفسه)!

فكيف يستقيم هذا المنطق؟ كيف نكون قطعيين ونمتدح مَنْ يؤمّن لنا الخبزَ مساءً، حتى لو كان قد عرَّضَ قضيّتنا الوطنيةَ للخطر الفادح أطراف النهار (وآناء الليل)؟ أنا أعلم أنّك ستقول لي: «مَنْ يأكل العصيَّ غيرُ مَنْ يَعدّها!». ولكنْ أتقضي المشاركةُ في سلك التعليم الموافقةَ على خيار السلطة السياسيّ؟ أيقتضي تنظيمُ عمل البلديّات الانخراطَ في سلك السلطة؟ غيرَ أنّه يبدو أنّ «الشعبية» و«الديموقراطية» تشاركان في جميع مؤسسات السلطة، على حد قول نبيل شعث، «ولكنْ ليس على المستوى الوزاريّ» (**الحياة** ٢٦ آب)، ويقال إنّ هناك عناصرَ من التنظيميْن يُشاركون في الجهاز الأمنيّ الفلسطينيّ. فيا لَلْهَوْل!

ماذا تبقّى، إذن، من مبدئيةِ الجبهة الشعبية بعد كل هذا؟ منطقُ «الخبز» لا يمكن تجاهلُه، ولكنكم ـ شأنكم شأن المناضلين في كل العالم ـ صمدتم في «حركة القوميين العرب» وفي فتراتٍ صعبةٍ من عمر الجبهة الشعبية دون أن تتنازلوا لهذا المنطق. أنا لستُ نظاماً نفطياً، ولا حلّ لديّ لإطعام الأفواه ولا لتأمين الوظائف، علماً أنّ شعث يحذِّر أنّ مَنْ تأخّر ٦ سنوات «لا يجوز له أن يطالِبَ بما كان يمكن أن يحصل عليه من قبلُ!» (**الحياة** ٢٦ آب). ولكنّ من الواضح أنّ منطق د. أبو النمل قد لا يؤدّي إلى «القطعية»، بل إلى التسوية... وربّما على الثوابت الوطنية أيضاً. أليس كذلك؟

و ـ هل ضغطتْ سوريا عليكم من أجل القيام بالحوار مع عرفات؟

أنت، أيّها الحكيم، تقول إنّ سوريا لم تطلب منكم التخلّي عن العمل المسلّح والانخراطَ في العمل السياسيّ. وتقول أيضاً (في **السفير** ٢٧ تموز) إنّ السيد عبد الحليم خدّام دعا الفصائل الموجودة في سوريا إلى عدم التفاؤل باقتراب التسوية، وإنّ كلام خدّام لم يتضمّن الدعوةَ إلى وقف النشاط السياسيّ أو الكفاح المسلّح، بل كان كلامُه «أقربَ إلى التحريض على الثبات على المواقف المبدئية والنضالِ لمنع الانحراف!» (**السفير** ٢٧ تموز). والأخ أبو علي مصطفى يصرّح أيضاً أنْ لا علاقة لسوريا بالموضوع، مؤكّداً أنّ أحداً «لا يضغط علينا»! (**السفير** ٢ آب). والسيد طلال ناجي ـ الأمين العام المساعد لـ «القيادة العامة» ـ أكّد

ما أكّدتماه، وذلك في أحد البرامج على تلفزيون «الجزيرة».

ولكنْ من ناحية أخرى يؤكّد السيد نايف حواتمة أنّ «الإخوة السوريين لديهم توقعات عالية منذ وصول باراك الى السلطة، وأنّهم نصحوا حركات الرفض الفلسطينية بأخذ العلم بذلك» (**السفير** ٢٣ آب). وكان قد أكّد الأمرَ عينه في مؤتمرٍ صحفيّ «هاتفيّ» عقده مع صحافيين إسرائيليين (**السفير** ٢١ تموز).

فمن نصدِّق؟ سنصدقكم أنتم لأنكم، بصراحة، أكثرُ مصداقيةً. ولكنْ، في هذه الحال، سيزول مبرِّرٌ «خفيّ» محتملٌ، بل يتداوله الناسُ حقّاً، من مبرِّرات إقدامكم على الحوار مع عرفات!

ز ـ ما هو برنامج تحرككم «السلميّ» المقبل؟ وتحت هذا السؤال تندرج عدة أسئلة:

* ما سيكون موقفكم ممّن يواصل العملَ العسكريَّ ضد الاحتلال؟ فالمقاومة المسلحة ستستمرّ، وقد تتصاعد في بعض المراحل، فأين ستقفون: إلى جانب السلطة و«السلام» ومشروعِ بناء «الدولة» العتيدة، أم إلى جانب المقاومة والكفاح المسلّح و«المغامرة» و«الإرهاب»؟

** ما سيكون موقفكم من عمليات القمع والتعذيب والمطاردة التي ستنفِّذها السلطةُ الفلسطينيةُ تطبيقاً لاتفاقات أوسلو (التي تريدون ـ من منطلق التفكير الرغائبيّ لا غير ـ تجاوُزَها!)؟ هل ستواصلونَ التنديدَ بها، كما فعلتم بعد حادثة تعذيب السيد سامي نوفل منذ أيام؟ وكيف ستتصرفون حين تأخذكم السلطةُ بجريرة «الإرهابيين» لمجرّد تعاطفكم معهم؟

*** ما سيكون موقفكم من قوى المقاومة العربية الأخرى، والجمعيات المناهضة للتطبيع، والشخصيات الثقافية التي رأتْ في تحرككم الأخير تعزيزاً لسلطة عرفات وتخلّياً عن تحرير فلسطين وبناء الدولة المستقلة؟ هل سيتحول مثقفو «الجبهة» وإعلاميّوها وقادتها إلى أبواقٍ تشيكيين ناطقين بلسان السلطة الوطنية الموحَّدة «الجديدة»؟

**** ما تُراه سيكون حجمُ التنازلات التي يمكنكم الموافقةُ عليها، إنْ قُدِّر لكم أن تشاركوا في مفاوضات الحلّ النهائيّ ضمن وفدٍ «متوازن»؟ ما تُراه يكون مقدارُ استعدادكم للتخلّي (مؤقّتاً!) عن «الثوابت» (اللاجئون، القدس، الحدود،...)؟ فأنتم تتوقعون ـ ولا شك ـ ألاّ تحصد هذه المفاوضاتُ إلا نتائجَ أدنى من الحدّ الأدنى لِمَا كنتم قد أجمعتُم عليه في السّابق (جوزيف سماحة، **الحياة** ٢٤ آب). والأرجح أن يلتزم باراك بلاءاته الخمس التي أعلنها خلال حملته الانتخابية وأكّدها بعد فوزه مباشرةً: لا لتقسيم القدس، ولا لجيشٍ أجنبيّ [فلسطينيّ] غربيَّ نهر الأردن، ولا لاقتلاع المستوطنات اليهودية أو لسيادة فلسطينية عليها، ولا لدولةٍ فلسطينيةٍ ذاتِ سيادةٍ تامة، ولا لحقّ العودة للاجئين الفلسطينيين (**مجلة الدراسات الفلسطينية**، شتاء ٩٧)!.

ح ـ وأخيراً، أيها الأمين العام، أين الجبهة الشعبية؟

هل الجبهة الشعبية هي جبهة جورج حبش وغسان كنفاني وأبو ماهر اليماني (المستقيل) وأحمد قطامش وماهر اليماني وصابر محي الدين وغيفارا غزة، أم جبهة المنتفعين من السلطة الجديدة المبنيّة على أعشارٍ من فلسطين وعلى أنقاض الشهداء والأسرى واللاجئين في الشتات؟ بل أين الـ ٩٩٪ من أعضاء الجبهة وكوادرها الذين تؤكد، أيها المناضل الكبير، «أنْ ليس لديهم أيُّ أملٍ» بهذا الحوار الذي تجرونه مع قيادة عرفات (**السفير** ٢٨ تموز)؟ مَنْ يُجري الحوار، إذنْ؟ الواحد بالمئة، أم التسعة والتسعون؟ أمّا الواحد بالمئة فلا يمكن أن يمثِّل الجبهة الشعبية. وأما التسعة والتسعون بالمئة فهم غير مقتنعين كما يبدو من حديثك، ولهذا فإنّ شيئاً لن يَنْتج ـ في هذه الحال ـ من حوارٍ أحدُ طرفيه غيرُ مقتنع بما يفعله. ولكنّ الأخ تيسير قبعة يزعم أنّ «فصيله سعيدٌ جداً بهذا الحوار» (**السفير** ٢ آب). فمن نصدِّق؟ حبش المتجهِّم الذي لا يأمل بالحوار، أم قبعة المندفع إلى الحوار ووجهُهُ يطفح سعادةً وحماسةً؟

وفي الختام، أدرك ضيقَ وقتك، أيّها القائد. ولكنْ حبّذا لو استطعتَ ـ أنتَ أو أحدُ قادة الجبهة الشعبية ـ الإجابةَ عن بعض الأسئلة التي طرحتُها عليكم مِنْ على هذا المنبر.

ودمتَ مناضلاً.

بيروت